حصريّا من المغرب لجريدة الحديث

عيديت بار كصوت يحمل ذاكرة متعددة

الفن أحيانًا يبقى الصوت الوحيد القادر على أن يقول ما تعجز عنه السياسة. خصوصا في شرق مثقل بالحكايات القديمة والجراح والأسئلة المؤجلة. ومن بين خطوط الكاريكاتير والكلمات العابرة للحدود، تبرز عيديت بار كصوت يحمل ذاكرة متعددة، وهوية نسجتها الثقافات والمنفى والأسئلة الإنسانية الكبرى.

أجرى الحوار: محمد أكن ـ المغرب

في هذا الحوار الحصري حيث تستضيف صحيفة «الحديث العربية»، وتقترب من امرأة اختارت أن تواجه صخيج الشرق الأوسط بالفن، وأن تبحث وسط الانقسامات عن مساحة صغيرة للإنسان. حديثٌ عن الهوية، والذاكرة، والخوف، والأمل... وعن قدرة الريشة أحيانًا على بناء ما تعجز عنه الخطابات الطويلة.

أولا السلام عليكم أستاذتنا، لنبدأ أولا: من هي عيديت بار؟

الجواب: أولا أشكر صحيفة الحديث العربية وكل طاقمها الإعلامي التي اتاحت لي فرصة للقاء مرة أخرى عبرها مع العالم العربي والاسلامي

ثانيا عيديت بار هي باحثة ومحاضرة مستقلة متخصصة في شؤون العالم العربي والإسلامي. تحمل درجة الماجستير في اللغة العربية والإسلام من الجامعة العبرية في أورشليم القدس، وعملت معلمة للغة العربية في مؤسسات تعليمية مختلفة داخل إسرائيل.

تنحدر عيديت من عائلة يهودية من مدينة مشهد الإيرانية، أُجبرت على اعتناق الإسلام نتيجة اضطهاد ديني عام 1839. وعاشت العائلة حياة مزدوجة؛ يهودًا داخل البيت ومسلمين في العلن، إلى أن هرب جد العائلة من إيران ووصل مع أسرته إلى أرض إسرائيل عام 1910.

أما جدتها من جهة الأم فقد وصلت من إيران عام 1915 وسكنت في سلوان بأورشليم القدس. وكانت تتحدث العربية بطلاقة، الأمر الذي ساعدها على النجاة من أحداث عنف استهدفت اليهود في عشرينيات القرن الماضي. هذه الجدة هي التي شجعت عيديت على تعلم العربية، ومنذ ذلك الحين ارتبطت باللغة العربية والثقافة العربية بعلاقة حب وفضولٍ معرفي، حتى أصبحت تُجري مقابلات أحيانًا مع وسائل إعلام عربية ودولية.

أستاذة عيديت، تنحدرين من أصول إيرانية وتحملين اليوم تجربة إسرائيلية متعددة الأبعاد... كيف انعكس هذا التنوع الثقافي على رؤيتك للفن والإنسان والشرق الأوسط؟

خلفيتي العائلية أثرت كثيرًا على شخصيتي وعلى المجال الذي اخترت العمل فيه كباحثة ومحاضرة حول الشرق الأوسط. سمعت منذ طفولتي قصصًا كثيرة عن جدي الذي كان مجبور بذهب إلى المسجد يوم الجمعة والاستماع إلى خطب مليئة بالكراهية ضد اليهود. لذلك أردت أن أتعرف أكثر على الإسلام، وأن أفهم كيف يستخدم الإسلام السياسي بعض النصوص الدينية لتبرير الكراهية والعنف ضد "الآخر".

أما اللغة العربية، فقد كانت جدتي من جهة أمي تُجبرني على مشاهدة المسلسلات الأردنية معها، وبفضلها تطورت لغتي العربية أكثر بكثير مما تعلمته في المدرسة. لهذا السبب أشعر بارتباط عميق باللغة والثقافة العربية. أنا مهتمة جدًا بالعادات والتقاليد العربية، وأحب مقارنة بعضها بالعادات اليهودية، كما أعشق دراسة الأمثال العربية وما تحمله من حكمة وتجارب إنسانية.

ومن أكثر المواضيع التي تشغلني – مكانة المرأة في الإسلام وفي المجتمعات الإسلامية عمومًا، ولهذا أطلقت بودكاست بعنوان "بنت حلال" (بالعبري) يتناول قضايا النساء في الشرق الأوسط.

بعد هجوم السابع من أكتوبر 2023 على إسرائيل، بدأت أظهر في مقابلات باللغة العربية عبر BBC وقنوات أخرى، لأشرح وجهة النظر الإسرائيلية، رغم أنني لا أمثل الحكومة الإسرائيلية رسميًا، بل أمثل نفسي كمواطنة إسرائيلية صهيونية تحب بلدها وترفض نشر الأكاذيب عنها.

كما فتحت حسابًا على منصة X أكتب فيه بالعربية، وأحاول من خلاله تفنيد الشائعات وخلق حوار مباشر مع الناطقين بالعربية حول العالم. وأحيانًا أسجل فيديوهات قصيرة بعنوان «الحقيقة في دقيقة»، أشرح فيها أحداثًا تاريخية أو أصحح معلومات مغلوطة.

على سبيل المثال، قدمت فيديو عن يهود غزة، لأن غزة كانت تضم جالية يهودية حتى أحداث عام 1929. كثيرون اتهموني بالكذب، لكن عندما اكتشفوا أن المعلومة صحيحة أصيبوا بالصدمة، لأن هناك أشياء كثيرة لا يتعلمونها المدارس ولا تعرضها وسائل الإعلام العربية المنحازة ضد إسرائيل.

في أعمالك، يبدو الكاريكاتير وكأنه وسيلة لفهم المجتمعات أكثر من كونه أداة للسخرية فقط... متى أدركت أن الرسم يمكن أن يتحول إلى جسر للحوار؟

بالفعل، الكاريكاتير ليس مجرد نكتة مرسومة، بل هو وسيلة بصرية لنقل الرسائل، أشبه بمقال رأي مرسوم.

في كثير من الدول العربية، حيث حرية التعبير محدودة، يستخدم الفنانون الكاريكاتير كوسيلة للتعبير عن صوت الناس غير المسموع. لذلك أرى أن الكاريكاتير يُعد أحد أرقى أشكال حرية التعبير.

الكاريكاتير العربي يكشف بشكل ساخر المواضيع المحرّمة والمسكوت عنها، ويضعها أمام الرأي العام. ومن خلال السخرية والرمزية والتهكم، يسلط الفنانون الضوء على الظلم والقمع والمشاكل الاجتماعية والسياسية.

هذا العالم يثير اهتمامي بشكل كبير لأنه يسمح لنا بفهم المجتمع العربي من الداخل: ماذا يخيفه؟ ماذا يغضبه؟ وما الذي يحلم به؟

والأجمل أن الكاريكاتير، خصوصًا إذا كان بلا كلمات، يكسر حاجز اللغة، واليوم مع وسائل التواصل الاجتماعي أصبح تأثيره على الرأي العام أكبر من أي وقت مضى.

ومن خلال مدونتي للكاريكاتير العربي التي

افتتحتها عام 2016، استطعت أن أشرح للقارئ الإسرائيلي أهمية هذا الفن في العالم العربي، لأن كثيرًا من الإسرائيليين لا يعرفون العربية أصلًا ولا يتابعون الإعلام العربي. وبهذا المعنى كنتُ بمثابة "همزة وصل" بين القارئ الإسرائيلي والكاريكاتير العربي.

كيف ترين صورة الشرق الأوسط اليوم من خلال عين فنانة عاشت بين ثقافات وهويات مختلفة ومتقاطعة؟

أنا لست رسامة كاريكاتير، لكنني أجمع الكاريكاتيرات العربية وأحللها للقارئ الإسرائيلي. لدي أيضًا فقرة ثابتة في التلفزيون الإسرائيلي أستعرض فيها كاريكاتيرات تلخص ما يجري في الشرق الأوسط وتكشف كيف ينظر العالم العربي إلى الأحداث السياسية.

أعتقد أن الشرق الأوسط مليء بالصراعات، ويمكن رؤية ذلك بوضوح عبر الكاريكاتير. فعندما تسمح دولة ما لرسامِيها بتصوير قادة إيران مثلًا كأفاعٍ أو أخطبوط ينشر الإرهاب، فهذا يعكس موقفًا سياسيًا واضحًا تجاه النظام الإيراني.

وفي المقابل، نلاحظ أحيانًا كيف تتغير نبرة الكاريكاتير بحسب المصالح السياسية للدول. فالكاريكاتير في العالم العربي ليس منفصلًا عن السلطة، خصوصًا في الدول التي لا توجد فيها حرية تعبير حقيقية. لذلك شهدنا عبر التاريخ رسامين عربًا تعرضوا للملاحقة أو السجن أو حتى الاغتيال لأنهم تجاوزوا "الخطوط الحمراء".

المرأة في منطقتنا تواجه تحديات اجتماعية وثقافية متشابهة رغم اختلاف الحدود... إلى أي حد تحاولين نقل صوت المرأة وهمومها عبر رسوماتك وكتاباتك؟

كما قلت سابقًا، قضية المرأة تهمني جدًا، وخاصة أوضاع النساء في المجتمعات الإسلامية. أنا لا أرسم بنفسي، لكنني أتابع بإعجاب كيف يستخدم بعض رسامي الكاريكاتير العرب فنهم لانتقاد التمييز ضد المرأة والعنف الموجه إليها وحتى جرائم "الشرف".

الكاريكاتير أحيانًا يكون أقوى من المقالات الطويلة، لأنه يوجّه صدمة بصرية مباشرة تجعل الإنسان يعيد التفكير في ما اعتبره "أمرًا طبيعيًا".

قوة الكاريكاتير تكمن في بساطته، وفي قدرته على استخدام السخرية والرمزية لنقل رسالة موجعة بسرعة.

في كتابي عن الكاريكاتير العربي «خطوط تعبر الحدود»، خصصت عدة فصول لقضايا المرأة: منها عدم المساواة، والتحرش والعنف ضد النساء، حيث يصور بعض الرسامين المتحرش كوحش أو ذئب مفترس. كما تناولت موضوع زواج القاصرات، الذي يُصوَّر في كثير من الكاريكاتيرات على أنه سرقة لطفولة الفتاة.

وفي المقابل، هناك أيضًا جانب أكثر تفاؤلًا يتحدث عن النساء القويات والرائدات والنسويات اللواتي يرفضن تقييدهن باسم الدين أو التقاليد.

هل تعتقدين أن الفن قادر فعلًا على تقريب الشعوب التي فرقتها السياسة والصراعات، أم أن تأثيره يبقى رمزيًا فقط؟

أعتقد أن الفن قادر فعلًا على كسر الحواجز وتقريب الشعوب. بفضل اهتمامي بالكاريكاتير العربي، تعرفت على فنانين من دول عربية، بينهم فنانون من المغرب، ونشأت بيننا علاقات إنسانية وصداقة بعيدًا عن السياسة.

الكاريكاتير الجيد يستطيع أن يجعل أشخاصًا من ثقافات مختلفة يضحكون ويفكرون ويشعرون معًا، حتى لو لم يتفقوا على كل شيء.

ومن خلال الكاريكاتير العربي أتعرف على المجتمع العربي من خلال حسه الفكاهي ونقده الذاتي ومشاعره الحقيقية. وعندما ترى الإنسان خلف الرسمة، يصبح من الصعب أن تكرهه بشكل أعمى.

لكن في المقابل، هناك أيضًا رسامون عرب يستخدمون فنهم لنشر الكراهية والتحريض ضد إسرائيل، وتقديمها بصورة "الشر المطلق"، أحيانًا عبر معلومات مضللة أو خطاب عاطفي أحادي الجانب.

للأسف، جزء من هذه الكراهية ناتج عن المناهج الدراسية والإعلام، وينعكس لاحقًا في الخطاب الثقافي والفني.

من خلال تفاعلك مع الجمهور العربي، ما أكثر شيء فاجأك أو لمسك إنسانيا خلال السنوات الأخيرة؟

من خلال تفاعلي مع الناطقين بالعربية على منصة X، أرى أحيانًا كيف تؤثر سنوات طويلة من التربية على الكراهية والصور النمطية. لكن في المقابل، فوجئت أيضًا بعدد كبير من العرب الذين يقرأون ما أكتبه بفضول واحترام، وبعضهم يراسلني سرًا ليقول إنه يدعم إسرائيل لكنه يخشى التعبير عن رأيه علنًا.

تعرفت على أشخاص قرروا "تحرير عقولهم" من الكراهية التي تربوا عليها، وبدأوا يبحثون ويقرؤون بأنفسهم. هؤلاء أناس أقدّرهم جدًا لأنهم يفكرون بشكل نقدي ولا يكتفون بالشعارات.

العالم العربي متنوع جدًا، وهذه حقيقة لا يدركها كثير من الإسرائيليين. ليس كل العرب يكرهوننا، وعندما نتحدث مع الناس بلغتهم نكتشف أن بينهم من يريد الحوار والتفاهم وربما حتى تغيير نظرته القديمة تجاه اليهود والإسرائيليين.

ما الرسالة التي تودين توجيهها إلى الشباب في الشرق الأوسط الذين يبحثون اليوم عن لغة مشتركة تتجاوز الخوف والكراهية؟

رسالتي إلى الشباب العربي هي: لا تصدقوا كل ما يُقال لكم عن إسرائيل أو عن اليهود. لا تكتفوا بالشعارات أو المقاطع القصيرة على تيك توك، بل ابحثوا واقرؤوا وادرسوا التاريخ بأنفسكم.

الشرق الأوسط مليء بالروايات المتناقضة، ولا يمكن فهم هذا الصراع من خلال طرف واحد فقط. كثير من وسائل الإعلام العربية تعرض الرواية الفلسطينية وحدها، بينما يُنظر إلى كل ما تفعله إسرائيل على أنه "عدوان" وليس دفاعًا عن النفس.

من يقرأ التاريخ بصدق يكتشف أن الصورة أكثر تعقيدًا بكثير. وأنا أؤمن أن السلام الحقيقي يبدأ عندما يعترف كل طرف أيضًا بمعاناة الطرف الآخر وحقه في الوجود والكرامة. فقط عندها يمكن كسر دائرة الكراهية والتحريض والدم.

كلمة أخيرة سيدتي؟

أريد أن أبقى متفائلة، وأن أؤمن بأن العالم يمكن أن يصبح أفضل، وأننا نستطيع – يهودًا ومسيحيين ومسلمين – أن نتحد رغم اختلافاتنا، في مواجهة قوى الظلام والكراهية التي تنشر الخوف والدمار في كل مكان.

أتمنى أن يحب الناس أبناءهم أكثر مما يكرهون الآخرين. وأن نستطيع معًا، بعون الله، أن نبني مستقبلًا أفضل لأطفالنا وأحفادنا.

في النهاية، نحن جميعًا أبناء إبراهيم. ويمكننا أن نختار:إما أن نورث أبناءنا المزيد من الحروب والخوف...

أو نورثهم الأمل، والكرامة، والقدرة على العيش المشترك.

الوطن لم يغادرنا... ولكننا تركنا أبوابه مشرّعة للخراب

دكتورة روز شعبان تسألين: هل غادرنا الوطن أم نحن من غادره؟ كلماتك ليست مقالا عابرا، بل صرخة في وجه زمن بات فيه الرصاص أعلى صوتا من الحكمة، والخوف أكثر حضورا من الأمان، والدم أقرب إلى شوارعنا من أحلام أبنائنا. وحين قرأت سؤالك: «هل غادرنا الوطن أم غادرناه؟» أدركتُ أن الإجابة لا تكمن في الجغرافيا، بل في الإنسان.

مقال رأي بقلم:

د. فاطمة أبو واصل إغبارية

فالوطن لا يرحل. الوطن ليس إنسانًا يغضب فيغادر، ولا طيفًا يملّ من الانتظار فيختفي. الوطن باقٍ في أرضه وترابه وأشجاره، في أذان مساجده وأجراس كنائسه، وفي ذاكرة الأجداد الذين أوصونا به أمانةً في أعناقنا. لكنه لا يستطيع أن يحمي نفسه منّا حين نتخلى عن القيم التي جعلتنا أهلًا له.

إن الذي غادرنا حقًا ليس الوطن، بل أشياء كانت تحرس وجودنا وتحفظ مجتمعنا من الانهيار. غادرتنا قيمٌ كانت تضبط سلوكنا، وغادرنا حياءٌ كان يردعنا عن الظلم، وغادرنا ضميرٌ كان يستيقظ قبل أن تسيل قطرة دم واحدة. لذلك لم يخذلنا الوطن، بل نحن الذين خذلناه حين سمحنا للانقسام أن يكبر، وللخوف أن يحكم، وللجريمة أن تتحول من خبر صادم إلى مشهدٍ مألوف.

وفي مجتمعنا العربي في الداخل، لم تعد المأساة في عدد الضحايا فقط، بل في اعتياد المأساة نفسها. أن نستيقظ على جريمة ثم نتابع يومنا كأن شيئًا لم يكن، وأن نبكي ضحية اليوم بينما نتهيأ نفسيًا لضحية الغد، وأن نستنكر القتل بألسنتنا فيما نتسامح مع أسبابه في واقعنا. وهنا يكمن الخطر الحقيقي.

هذه ليست هزيمة أمنية فحسب، بل هزيمة أخلاقية وإنسانية وتربوية. فالسلاح لا يضغط على الزناد وحده، بل تقف خلف كل رصاصة تربية ناقصة، وخلف كل جريمة سنوات من الصمت، وخلف كل قاتل منظومة من التبرير والخوف والتخاذل.

ولنكن صريحين مع أنفسنا: لا يمكن أن نحارب العنف ونحن نمجّد العصبية، ولا يمكن أن نحرّم الجريمة ونحن نصمت عن المجرمين، ولا يمكن أن نبني مجتمعًا سليمًا ونحن نربي أبناءنا على أن القوة أهم من الحق، وأن الخوف أسلم من المواجهة. لقد ابتعدنا عن جوهر ديننا الذي جعل حرمة الدم مقدسة، وعن الأخلاق التي جعلت الإنسان أخًا للإنسان، وعن التربية التي كانت ترى في الابن مشروع إنسان ورسالة حياة، لا مشروع قوة ونفوذ.

إن أخطر ما في الجريمة ليس القاتل، فالقاتل فرد مهما بلغت خطورته. أما الأخطر فهو المجتمع الذي يتعلم التعايش مع القتل، ويتعامل مع الدم كخبر عابر، ومع الجنازات كمشهد متكرر. حين تكبر أجيال كاملة وهي تسمع أصوات الرصاص أكثر مما تسمع أصوات الكتب، فإن الخطر لا يعود على الأفراد وحدهم، بل على روح المجتمع وهويته ومستقبله.

ومع ذلك، لسنا شعبًا بلا أمل. فهذا الشعب الذي حافظ على هويته رغم عقود التهميش والقهر، قادر على أن ينهض من جديد. لكن النهوض لا يبدأ من البيانات ولا من منشورات الغضب، بل يبدأ من البيت والمدرسة والمسجد والكنيسة، ومن المربي والمعلم والمثقف، ومن كل أب يزرع في أبنائه احترام الحياة، وكل أم تربي على الرحمة بدل الانتقام، وكل صاحب كلمة يرفض أن يكون شاهد زور على هذا الانهيار.

الوطن لا يحتاج إلى دموعنا فقط، بل إلى شجاعتنا. يحتاج إلى أن نقول للمجرم: لا. وللفساد: لا. وللسلاح المنفلت: لا. ولثقافة الصمت: لا. فالوطن ليس مجرد أرض ندافع عنها حين يهددها الغريب، بل هو مجتمع نحميه من أنفسنا حين يهدده الخراب من الداخل.

لذلك لا أسأل: هل غادرنا الوطن أم غادرناه؟ بل أسأل: متى نقرر أن ننقذ ما تبقى من أرواح أبنائنا؟ متى نعيد للدم العربي حرمته؟ ومتى ندرك أن الرصاصة التي تقتل شابًا في شارعنا لا تصيب فردًا واحدًا، بل تصيب قلب الوطن كله؟ عندما نواجه أنفسنا بصدق، ونراجع أخطاءنا بشجاعة، ونعود إلى ديننا وأخلاقنا وقيمنا، ويصبح الإنسان أغلى من المصالح والعصبيات، عندها فقط سيعود الوطن كما نريده: حضنًا دافئًا لا مقبرةً لأحلام أبنائه.

لا، لم يغادرنا الوطن. الوطن ما زال واقفًا ينتظر أبناءه، لكننا نحن الذين أضعنا الطريق إليه. أضعناه يوم أصبح حمل السلاح أسهل من حمل المسؤولية، ويوم صار بعضنا يخاف المجرم أكثر مما يخاف الله، ويوم سكت الشرفاء فتجرأ العابثون، ويوم تحول الدم إلى رقم، والضحية إلى خبر، والجريمة إلى عادة.

إن الوطن لا يُقتل بالرصاص وحده، بل يُقتل حين تنهار الأخلاق، وتغيب التربية، ويُهجر الدين، ويصبح الإنسان عدوّ أخيه الإنسان. فقبل أن نسأل: أين الوطن؟ علينا أن نسأل: أين نحن من قيم الوطن؟ وأين نحن من وصايا الآباء والأجداد؟ وأين نحن من دين جعل قتل نفس واحدة جريمة تهتز لها السماوات والأرض؟

يوم نعود إلى أنفسنا، ونستعيد إنسانيتنا، ونحمل مسؤوليتنا بشجاعة، لن نبحث عن الوطن بعد ذلك، لأننا سنجده حيًّا في ضمائرنا، نابضًا في قلوبنا، مزهرًا في أبنائنا.فالأوطان لا تضيع حين تكثر المؤامرات عليها، ولن تضيع حين يتخلى أبناؤها عن واجبهم تجاهها... دمتم سالمين.